٤٩- باب قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

قال ابن حزم: اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله كعبد عمرو، وعبد الكعبة، وما أشبه ذلك حاشى عبد المطلب.

وعن ابن عباس في الآية: قال لما تغشاها آدم حملت فأتاهما إبليس فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتطيعاني أو لأجعلن له قرني أيل، فيخرج من بطنك فيشقه، ولأفعلن ولأفعلن يخوفهما، سمياه عبد الحارث. فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتا، ثم حملت فأتاهما فقال مثل قوله، فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتا. ثم حملت فأتاهما فذكر لهما فأدركهما حب الولد فسمياه عبد الحارث، فذلك قوله ﴿جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ .

رواه ابن أبي حاتم.

وله بسند صحيح عن قتادة قال: شركاء في طاعته ولم يكن في عبادته.

وله بسند صحيح عن مجاهد في قوله: ﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً﴾ قال: أشفقا أن لا يكون إنسانا. وذكر معناه عن الحسن وسعيد وغيرهما.

فيه مسائل:

الأولى: تحريم كل اسم معبد لغير الله.

الثانية: تفسير الآية.

الثالثة: أن هذا الشرك في مجرد تسمية لم تقصد حقيقتها.

الرابعة: أن هبة الله للرجل البنت السوية من النعم.

الخامسة: ذكر السلف الفرق بين الشرك في الطاعة والشرك في العبادة.

الشرح :

قوله : «**باب قول الله تعالى ﴿فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما﴾**» له علاقة بالباب السابق فالباب السابق إما أن نقول فيه الكلام على النعم بصفة عامة أو الكلام على فتنة المال لقوله تعالى : ﴿**إنما أموالكم وأولادكم فتنة**﴾ فالمؤلف ذكر في الباب السابق الكلام على فتنة المال وذكر فيها قصة الأعمى والأبرص والأقرع، وتكلم على جزاء الشاكرين وعاقبة الذين يكفرون بالنعم ، والكلام هنا على فتنة الولد، الابتلاء بالأولاد ، فكأن هذا فيه تفسير لهذه الآية ﴿**إنما أموالكم وأولادكم فتنة**﴾ فذكر فتنة الأموال ثم ذكر فتنة الأولاد ، فكأنه هنا يتابع الكلام على وجوب شكر النعمة عموما وشكر نعمة الولد خصوصا والتحذير من كفران هذه النعمة بأي صورة من صور الكفران، وإن كان المؤلف هنا ذكر صورة واحدة وهي التعبيد لغير الله، تسمية الولد وتعبيده لغير الله كما سيأتي، الإنسان يكون عبد فلان أو عبد فلان، عبد الرسول أو عبد النبي أو عبد الكعبة أو عبد علي عند الشيعة عبد الحسين عبد الأمير أو عبد الحسن ، ففي هذا منع إضافة النعمة لغير الله سبحانه وتعالى وأن هذا فيه إساءة أدب في جانب الربوبية .

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى: مقصود الترجمة أن من أنعم الله عليهم بالأولاد وأكمل الله النعمة بهم بأن جعلهم صالحين في أبدانهم وتمام ذلك أن يصلحوا في دينهم ـ هذا الصلاح الأول صلاح في الأبدان، ثم الصلاح الثاني صلاح في الأديان، صلاح الأولاد يكون في هذين الجانبين، صلاح في الأبدان وصلاح في الأديان، صلاح في الأبدان ، يخرج الإنسان سويا، يأتي الإنسان بولد سوي، غير مشوه، ليس فيه آفات في

خلقته ، أو في عقله ، أو في غير ذلك ، هذا صلاح في الأبدان ويتبع ذلك وهو الأهم الصلاح في الأديان ـ فعليهم أن يشكروا الله جل وعلا على إنعامه، وألا يعبّدوا أولادهم لغير الله ـ كأن تقول عبد فلان أو عبد فلان ـ أو يضيفوا النعم لغير الله فإن ذلك كفران للنعم وهو مناف للتوحيد . أ هـ

إذا نعمة الولد نعمة عظيمة وهذه النعمة لها شقان: نعمة إذا كان هناك صلاح في الأبدان، الولد يخرج سويا مكتملا تام الهيئة ؛ وثانيا : النعمة بصلاحهم في أديانهم بالهداية والاستقامة ، فينبغي على الإنسان أن يشكر الله جل وعلا على هذه النعمة ؛ ويوجد من الناس كثيرون يبحثون عن الولد ويتعبون في ذلك ولا يأتيهم الولد، وأناس آخرون ينفقون الأموال الكثيرة في الطرق الموجودة في محاولة كما يقولون بالتخصيب أو عن طريق أطفال الأنابيب وعلاج العقم وغير ذلك ، وقد يوفق الإنسان لذلك بعدما ينفق آلاف الأموال ، وقد يأتي الإنسان الولد بدون هذا التعب ، فتحمل امرأته حملا يسيرا لكن يكفر بهذه النعمة، وهذه المرأة تكفر بهذه النعمة ، فبدلا من شكر الإنسان هذه النعمة ويبدأ في دعاء الله جل وعلا أن يوفقه للولد الصالح فمن خوف المرأة على هذا الولد ومن خوف الأب عليه يبدآن في مبارزة الله جل وعلا بالمعاصي ، تبدأ المرأة تذهب تكشف على الولد عند الدكتور الطبيب الرجل الذكر وتترك النساء الطبيبات ، تذهب للرجل وتترك المرأة بحجة أن هذا أمهر من تلك وأن هذا الطبيب الرجل ماهر ؛ وأنها ستتابع معه إلى الوضع وإلى الولادة وإلى غير ذلك ، فتبدأ أول خطوة في حياتها مع هذا المولود بكفران النعمة التي أنعم الله جل وعلا بها عليه أو عليها، فإذا كان هناك طبيبة مسلمة فلا يجوز للمرأة أن تذهب

للطبيب قولا واحدا لا خلاف فيه عند أهل العلم، تذهب للطبيب الرجل يكشف عليها وتنكشف سوأتها بحجة متابعة الحمل، فسل الأمهات والجدات ماذا كن يفعلن فيما سبق؟

الأمور كانت تؤخذ بسهولة ويسر ولم يكنّ يعرفن مراجعة الطبيب أو الطيبية كل شهر أو كل أسبوعين بحجة الخوف على الحمل وبحجة كذا وحجة كذا ، أوهام يلقيها الشيطان في أذهان هؤلاء حتى يدفعهم للمعصية وارتكاب المحظور وإنفاق الأموال التي لا داعي لإنفاقها ، وهي لا تشعر بشيء، لا تشعر بشيء غير طبيعي أو آلام ، إنما هو الحمل المعروف ، وتكرر هذا الكشف إلى تسعة أشهر ، وهذا من كفران النعمة، أن تبدأ بدل أن تشكر الله جل وعلا على ما أعطاك وغيرك أنفق فيه الأموال الباهظة الكثيرة وتعب سنينا طويلة تبدأ بكفران النعمة بهذه الطريقة، وبعد الولادة سلاسل أخرى من كفران النعمة كتعبيده لغير الله وغير ذلك مما ربما يأتي فيه الكلام .

ومن أعظم ذلك أن المرأة التي لا تلد قد تذهب إلى ولي من الأولياء أو ضريح من الأضرحة تطلب منه الولد، وقد تذبح له ذبيحة وقد تضع له النذور من أجل الولد، وهذا ليس كالأول ، بل هو شرك أكبر مخرج من الملة، المرأة التي تذهب تقول : يا بدوي أو يا شيخ عبد الله أو يا شيخ فلان أو يا حسين أو يا كذا أريد ولدا أو أريد كذا هذا شرك أكبر، هذا دعاء غير الله جل وعلا واعتقاد أن هذا الولي له من أمر الربوبية شيء وأنه يعطي الولد ويرزق ويهب ما يشاء إناثا وذكورا، هذا أخطر شيء، وهذا منتشر وموجود ، وفي لبنان صخرة تعرف ـ في قرية اسمها بعلبك ـ بصخرة الحوامل، صخرة كبيرة تأتيها الحوامل، المرأة الحامل تتمسح بها، حتى يخرج الولد سليما أو ربما

لكي تطلب أنثىٰ أو ذكرا علىٰ تفصيل يذكرونه، صخرة الحوامل، هذا أعظم ما يكون من الخسران ؛ وهذا من الشرك الأكبر ؛ فسواء أتىٰ صخرة أو أتىٰ وليا أو أتىٰ قبرا أو أتىٰ ضريحا من الأضرحة ؛ يسأله الولد أو الأنثىٰ أو الذكر فهذا من الشرك الأكبر المخرج من الملة، أما ما ذكرناه من صور سابقة فيتفاوت ما بين كفران النعمة وما بين الشرك الأصغر ، وهو درجات .

قوله : «**قول الله جل وعلا ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة﴾**» في سورة الأعراف ؛ هذه بداية الآيات ﴿**من نفس واحدة**﴾ يقصد آدم عليه السلام {خلقكم من نفس واحدة}. وهذا فية عبرة وآية عظيمة.. أن آدم شخص واحد ؛ فالله جل وعلا خلق آدم، نفس واحدة، ومع ذلك انتشر من هذه النفس الواحدة كل هذه الأصناف من البشر علىٰ اختلاف أشكالها وألوانها وألسنتها وأماكنها وأنواعها وأجناسها من هذه النفس الواحدة، وهذه آية من آيات الله جل وعلا امتن بها علينا ﴿**هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها**﴾ التي هي حواء، خلقت من آدم عليه السلام ﴿**ليسكن إليها**﴾ اللام هنا لبيان العلة ﴿**ليسكن إليها**﴾ أي ليحصل السكن والاطمئنان المطلوب في الحياة الزوجية ﴿**ليسكن إليها**﴾ تخيل لو كان إنسان من البشر يتزوج جنية مثلا رجل يتزوج أنثىٰ أو العكس أو مثلا يتزوج من جنس آخر من الكائنات فكيف ستكون الحياة والعيشة ، وكيف سيأكلان معا؟ وكيف سيختاران طعاما واحدا؟ وكيف يتعاشران؟ وكيف يتكلمان؟ فمن آيات الله ومن نعمته أن جعل الزوجة من جنس الرجل، وهذه منة من الله جل وعلا ليحصل الأنس والألفة

والاطمئنان وحسن العشرة هذه من آيات الله سبحانه وتعالى أيضا التي امتن بها علينا .

﴿**فلما تغشاها**﴾ يعني جامعها، وهذه من الكنايات العظيمة في كتاب الله جل وعلا، لا يذكر الجماع بلفظه إلا في حالات معينة تحتاج إليه فيها ، وإنما يكني به بالتغشية كما أو بالملامسة كما في قوله : ﴿**أو لامستم النساء**﴾ أو الإفضاء كما في قوله : {وقد أفضى بعضكم إلى بعض} وغير ذلك ؛ وهذا من الأدب العظيم الذي يتعلمه الإنسان من كتاب الله جل وعلا، بعض الخطباء وبعض المذكرين يتكلم للناس ويأتي بألفاظ يريد أن يعبر لهم عن أشياء معينة يأتي لهم بألفاظ في غاية البشاعة والشناعة وإذا سألته يقول إنني أريد أن أقرب للناس المعنى، وهذه أشياء يعرفها الناس، فالإنسان يتعلم الأدب من كتاب الله جل وعلا .

﴿**فلما تغشاها حملت حملا خفيفا**﴾ هناك فرق بين الحَمل والحِمل ، الحَمل ما في البطن من الجنين ، والحِمل ما يحمل، تحمل على رأسك شيئا هذا حِمل، أما الحَمل فهو ما في البطن ﴿**فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به**﴾ حملا خفيفا: كثير من المفسرين يقولون المراد به نطفة الرجل ـ ماء خفيف سهل ـ وبعضهم يقول المقصود بالحمل الخفيف المراحل الأولى في الحمل أنه نطفة ثم يصير علقة ثم يصير مضغة كل هذا حمل خفيف فالمرأة لا تشعر به أو لا تتعب من ثقله في الشهور الأولى ﴿**حملت حملا خفيفا فمرت به**﴾ يعني قامت وقعدت ومشت بدون أن يصيبها تعب ﴿**فمرت به**﴾ بعضهم يقول استمرت به أو مرت به مرورا فلم تتعب منه ﴿**فلما أثقلت**﴾ صار الحمل ثقيلا في الأشهر الأخرى ، وكبر في بطنها وصار ذا ثقل ﴿**دعوا الله ربهما**﴾ الواو هنا ليست

واو الجمع وإنما هي واو الفعل ، دعا يدعو ، أصل الألف في دعا : الواو ، أنك ترجع هذه الأفعال المعتلة إلى أصلها غزا يغزو جرى يجري ، أصل الألف في جرى : الياء ، غزا أصل الألف : الواو، دعا أصل الألف : الواو، فهنا تثنية، فعل مثنى ﴿**دعوا الله ربهما**﴾ لأنه جل وعلا له الربوبية والألوهية سبحانه وتعالى ﴿**لئن آتيتنا صالحا**﴾ اللام هذه لام القسم ﴿**لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين**﴾ جمهور المفسرين على أن المقصود بالصالح هنا يعني الولد السوي الخلقة، التام في الخلقة، تام في خلقته سوي في خلقته، بعض المفسرين كالحسن وقتادة يقول المقصود به هنا الغلام، يعني طلب غلاما ذكرا، ولعل هذا السبب في أن المؤلف في آخر المسائل تكلم على نعمة الله أن يهب للإنسان البنت السوية لأن العرب كانت تكره البنت وكانت تستحي كما قال تعالى : ﴿**يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب**﴾ يربيه وهو على استحياء من الناس وفي هون أنه آتاه بنت أم يئده في التراب قال تعالى :﴿**وإذا الموءودة سئلت. بأي ذنب قتلت**﴾ فلعل هذا هو المعنى الذي نبه عليه المؤلف لأن الحسن وقتادة فسرا هذه الكلمة بالغلام، وجمهور المفسرين فسروها بالاستواء والتمام في الخلقة ﴿**لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين**﴾ يعني الشاكرين على هذه النعمة ﴿**فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما**﴾ يعني آتاهما ما طلب من الولد المعافى التام في خلقته ﴿**جعلا له شركاء فيما آتاهما**﴾ هذه الكلمة فيها خلاف بين المفسرين ملخصه :

القول الأول: أن الضمير يعود على آدم وحواء ﴿**جعلا**﴾ والضمير يعود على آدم وحواء لأن كل الضمائر السابقة عادت على آدم وحواء ﴿**فلما آتاهما**﴾ ﴿**دعوا**﴾ ﴿**لئن**

آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين﴾ فالضمائر كلها عادت على الأبوين الكريمين ﴿**فلما آتاهما صالحا**﴾ ولدا معافى ﴿**جعلا له شركاء**﴾ بأن سمياه عبد الحارث كما في آثار وأحاديث مرفوعة وموقوفة سيأتي الكلام عليها وعلى تخريجها كلها تدل على أن إبليس جاء لحواء وكان لا يعيش لها ولد فقال لها: أرأيت إن عاش أتسميه باسمي؟ فغلب عليها حب الولد وقالت: نعم.. فلما رزقها الله جل وعلا ولدا سويا ووضعته ورأته جاءها قال لها: ألم تعديني أن تسميه باسمي.. قالت له: وما اسمك؟ قال: الحارث.. فسمته بعبد الحارث، وقيل أن هذا كان اسمه سابقا، وهي لا تعرف أن هذا اسم إبليس، ستأتي تفاسير السلف كقتادة وغيره أنهم قالوا شركاء في طاعته ولم يكن في عبادته ، ويجب هنا أن ننبه على الفرق بين الطاعة والعبادة وأن الطاعة درجات، الطاعة في المعصية درجات فهناك طاعة في معصية مجرد معصية، يعني لو أن إنسانا طلب منه والده شراء سجائر ؛ فأطاعه وعصى الله جل وعلا ؛ فلا يقال أنه عبد والده ؛ ولا يقال إن هذه عبودية، بخلاف إذا قال له : اذهب فاذبح هذه البقرة أو الكبش عند الولي الفلاني أو اسجد لي من دون الله مثلا أو اذهب فضع هذا النذر في المكان الفلاني، أو عند شيخ من المشايخ أو الأولياء أو الأضرحة ، فالطاعة درجات ، الطاعة في المعصية تبدأ بالمعصية وتستمر وتصل إلى الشرك الأصغر وقد تصل إلى الشرك الأكبر، فليس كل طاعة في معصية تكون عبادة ، يعني هناك فرق بين مجرد الطاعة والعباد ة، مثلا عندك رئيسك في العمل يطلب منك أشياء بعضها مباح تطيعه فيها وبعضها غير مباح فتطيعه فيها، وتكون هذه الطاعة طاعة لهذا الشخص لكنها معصية لله لكن لا تسمى عبادة ، فلا بد أن نفرق بين الطاعة والعبادة ، والعبادة من لوازمها

الطاعة والطاعة من لوازم العبادة ، فآدم وحواء سمعا كلامه في ذلك وسمياه بهذا الاسم ولم يقصدا أن يعبداه لغير الله أو أن ربه هو فلان الحارث أو إبليس ، فلم يشكا في ربوبية الله جل وعلا ولا في ألوهيته وإنما هو مجرد تسمية وقعت منهما لما أشفقا عليه أن يموت .

وسيأتي كلام أهل العلم في أن الأب يعني آدم عليه السلام وقع منه في الأكل من الشجرة في الجنة ما هو أعظم من ذلك، يعني قالوا بأن الأكل من الشجرة في الجنة أعظم من هذه التسمية، لماذا؟ قالوا لأن أكله من الشجرة جاء بعد الأمر المباشر من الله جل وعلا والنهي المباشر من الله جل وعلا لآدم بألا يأكل من الشجرة، وهذا خطاب من الله جل وعلا مباشر لآدم ، ومع ذلك حصلت منه المعصية كما قال تعالى : ﴿**وعصى آدم ربه فغوى. ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى**﴾ أما هذا فلم يكن عنده فيه نهي مباشر وارتكاب الأكل من الشجرة مع هذا النهي المباشر أعظم من مجرد التسمية التي سمياه بها .

القول الثاني : أن هذه الآية ليست في آدم وحواء ؛ بل هي في أناس من اليهود أو النصارى رزقهم الله جل وعلا الولد فهوّدوا ونصّروا.. رزقهم الله جل وعلا الولد فكان شكر النعمة أن هودوا الأولاد أو نصّروهم، وقيل أنها في الكفار عموما .

قوله ـ رحمه الله ـ : «**قال ابن حزم: اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله كعبد عمرو وعبد الكعبة وما أشبه ذلك حاشا عبدَ –أو عبدِ– المطلب**» هذا الكلام ذكره ابن

حزم في كتابه مراتب الإجماع ، وابن حزم هو الإمام الأندلسي أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الإمام ، المتوفى سنة ست وخمسين بعد الأربعمائة .

قوله : «**قال ابن حزم: اتفقوا على تحريم**» يقصد بالاتفاق هنا الإجماع لأن كتابه هذا وضع لبيان الإجماع كما ذكر هو في مقدمته «**اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله**» اتفق أهل العلم وأجمع المسلمون على تحريم كل اسم معبد لغير الله ، لأن العباد كلهم عبيد لله سبحانه وتعالى وهو ربهم وخالقهم فلا يجوز أن يعبِّدوا الأسماء لغيره كمن يعبد للكعبة يقول عبد الكعبة أو للأشخاص كعبد الحسين وعبد علي أو عبد الأمير كما عند الشيعة، ابن حزم أيضا في تكملة كلامه في المراتب : معبد لغير الله كعبد العزى ؛ يعني كلام ابن حزم في مراتب الإجماع يقول: كعبد العزى ؛ هذا تعبيد للأصنام ؛ وعبد هبل ؛ أيضا تعبيد للأصنام.. وعبد عمرو وعبد الكعبة، هذا التكميل من مراتب الإجماع لابن حزم والمؤلف هنا اختصر كلامه، قال ابن حزم «**وما أشبه ذلك**» كعبد النبي، وهذا موجود في بلاد العجم كثير، التعبيد للنبي ﷺ ؛ والصواب أن يقال عبد رب النبي ﷺ .

قوله : «**حاشا عبد المطلب**» يعني باستثناء عبد المطلب ، الاستثناء هنا ما معناه؟ هل الاستثناء هنا معناه جواز ذلك؟ أم الاستثناء معناه أن عبد المطلب فيه خلاف؟ الثاني هو الراجح.. أن التعبيد أو التسمية بعبد المطلب فيها خلاف، والراجح المنع، لكن إذا قلنا بأن الراجح المنع فما الجواب عما جاء في الحديث أن النبي ﷺ كان يقول:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

في حنين ؟ الجواب: أن هذا من باب الإخبار، أنه أخبر عن نسبه، يعني الإنسان لا يستطيع أن يغير اسم أبيه أو اسم جده أو اسم جد جده، هذا شيء يستحيل، لأن هذا نسب مسلسل معروف، فكان هذا منه على سبيل الإخبار، أما تسمية جد النبي ﷺ بعبد المطلب فكان لها سبب ؛ وهو أن المطلب لما ذهب إلى المدينة وجد شيبة هناك وكان قد مات أبوه هاشم ؛ فأراد أن يأخذه من عند أخواله ويرجع به إلى مكة ، فحمله خلفه على البعير، فيقولون إن من طول المسافة من المدينة إلى مكة تغير لون شيبة إلى السواد يعني أصبح كأنه أسود ومن ينظر إليه يظنه عبدا من العبيد فعندما دخل به المطلب مكة ظنوه عبدا للمطلب فقالوا هذا عبد المطلب ، يعني هذا عبد للمطلب.. لكن هو اسمه شيبة الحمد ، لكن من طول الطريق قالوا تغير لونه ؛ فهم أطلقوا عليه هذا الاسم ولم يقصدوا عبودية الربوبية ، يعني لم يأت في أذهانهم عبودية الربوبية وإنما قالوا أو ظنوا أن هذا عبد للمطلب لأنه كان قد تغير لونه بما يشبه لون العبيد الأرقاء.. هذا أصل التسمية .

يشكل على هذا أن البعض قال من الصحابة من كان يسمى بعبد المطلب بن ربيعة ، وقد ذكر الحافظ ابن حجر في الإصابة اسم هذا الصحابي ثم علق عليه قائلا: قال ابن عبد البر: لم يغير اسمه أو لم يغيِّر اسمه فيما علمت.. ابن عبد البر يقول هكذا.. الحافظ ابن حجر رد عليه قائلا أن أهل السير يقولون المطلب ، يعني المطلب بن ربيعة وأهل الحديث يقولون عبد المطلب بن ربيعة ؛ هذا في الإصابة .

إذا الصحابي عبد المطلب بن ربيعة ليس في اسمه وفاق ؛ بل كما قال أهل العلم من أهل السير من يقولون اسمه المطلب فقط ؛ ومنهم من أهل الحديث من يقول عبد المطلب، والحافظ كأنه يرجح أو يميل للقول الأول .

قوله : « **وعن ابن عباس في الآية: قال لما تغشاها آدم حملت فأتاهما إبليس** » وكان لا يعيش لهما ولد « **فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتطيعاني** » يعني هذا قسم ، أي والله لتطيعاني « **أو لأجعلن له قرني أيل** » أيل: هو ذكر الوعل.. الوحش.. من الوحوش التي تعيش في البراري، الوعل معروف من الأوعال له قرون، فيهددهما يقول إن لم تطيعاني في تسميته كما أذكر لكم لأجعلن له قرني أيل « **فيخرج من بطنك فيشقه** » فيشق بطنك، يعني يخوف حواء ، فأدركها حب الولد وخافا ألا يكون إنسانا كما في روايات كثيرة ، خافا أن يكون كما جاء في بعض الروايات بهيمة كما قال لهم هذا العدو، قد يكون بهيمة قد يكون ماعزا قد يكون نحو ذلك، فأدركهما حب الولد.. لذلك سبق في أول الكلام أن حب الولد قد يحمل الإنسان على ما لا تحمد عقباه وهذا هو الحاصل.. « **يخوفهما، سمياه عبد الحارث. فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتا** » يعني هذا من الابتلاء والامتحان ، الله سبحانه وتعالى أراد أن يخرج ميتا « **ثم حملت فأتاهما فقال مثل قوله، فأبيا أن يطيعاه ، فخرج ميتا. ثم حملت فأتاهما فذكر لهما فأدركهما حب الولد** » هذه الطبيعة البشرية ؛ وكثير من الناس يغلب عليه حب الولد وقد يرتكب المحظور، كما هو في واقعنا ؛ وإذا كلمته يقول : والله الأولاد وبسبب الأولاد إلى آخره.. يقول: « **فأدركهما حب الولد فسمياه عبد الحارث** » وكان القدر أن هذا الولد يخرج حيا « **فذلك قوله ﴿جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾** » الإمام قتادة السدوسي فسر-

هذه العبارة بكلمة أخذها من أتى بعده من المفسرين، فقال: «**شركاء في طاعته ولم يكن في عبادته** » وهذا من إظهار العذر للأبوين الكريمين كما سيأتي، وسبق أن الطاعة درجات ، فقد تكون طاعة مباحة وقد تكون طاعة في المعصية مجرد معصية وقد تكون الطاعة في المعصية كبيرة وقد تصل الطاعة في المعصية إلى الشرك الأكبر على ما سبق .

فقتادة رضي الله عنه ورحمه الله يقول: « **شركاء في طاعته** » يعني أطاعاه في التسمية فقط في مجرد التسمية بدون علم وبدون أن يقصدا أن الحارث هو ربه أو أنه خالقه ، فهذا شيء لم يقصداه ولم يكن في ذهنهما، قال: «**شركاء في طاعته**» يعني أطاعاه في التسمية فقط « **ولم يكن في عبادته** » .

المصنف الإمام المجدد رحمه الله تعالى قال في المسائل « **أن هذا الشرك في مجرد تسمية لم تقصد حقيقتها** » لم تقصد حقا لأنهما لم يجعلاه عبدا لإبليس كما هو كان يريد أو كما كان يحب .

قال الشيخ صالح آل الشيخ حفظه الله تعالى التشريك هنا تشريك فيما يدل عليه المعنى اللغوي ؛ وليس شركا أصغر ولا شركا أعظم وحاشاهما من ذلك وإنما هو تشريك في الطاعة وهو نوع تشريك .

لإهل العلم يجعلون مجرد المعصية نوع تشريك لأن كل من عصى الله جل وعلا فقد اتبع هواه وقدم طاعة هواه على طاعة الله جل وعلا فهذه يسمونها نوع تشريك ، لا يطلق عليها شرك أكبر أو شرك أصغر ولكن يسمونها نوع تشريك، يقول: فكل طاعة للشيطان أو الهوى فيها هذا النوع من التشريك .

ثم قال: « **وله بسند صحيح عن مجاهد** » يعني ولابن أبي حاتم « **بسند صحيح عن مجاهد في قوله: ﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً﴾ قال: أشفقا أن لا يكون إنسانا** » يعني يكون بهيمة أو يأتي غير كامل الخلقة، وكانت عائشة رضي الله عنها من فقهها إذا بشرت بمولود قبل أن تسأل عن ذكر أو أنثى كانت تسأل هل خلق سويا أم لا ؟ كانت تطمئن هل ولد سويا تام الخلقة أم فيه شيء؟.. وهذا من فقهها رضي الله عنها .

يقول: « **وذكر معناه عن الحسن وسعيد وغيرهما** » يعني ذكر ابن أبي حاتم معنى هذا الكلام عن هؤلاء الثلاثة..

يقول الشيخ صالح حفظه الله تعالى: هذه القصة لا تقتضي ـ نقصنا في مقام آدم عليه السلام ولا حواء بل هو ذنب من الذنوب تاب منه كما حصل لهم أول مرة في الأكل من الشجر ة، يقول: بل إن الأكل من الشجرة ومخالفة أمر الله جل وعلا أعظم وذلك لأن الخطاب الأول كان من الله عز وجل لآدم مباشرة وأما هذه التسمية فإنها لم يُنه عنها مباشرة وإنما يُفهم النهي عنها من وجوب حق الله جل وعلا فذاك المقام زاد على هذا المقام .

وأثر ابن عباس ورد مرفوعا عن غير ابن عباس ؛ وابن كثير رحمه الله تعالى ضعفه وأعله بعدة علل ؛ لكن هذه العلل هناك أجوبة كثيرة عنها سنذكرها الآن ونذكر بعض كلام أهل العلم من المتقدمين، وهذا التفسير الذي ذكرناه حكى عليه الإجماع الإمام الطبري، يعني سنذكر في كلام الإمام الطبري بعد قليل أنه حكى إجماع أهل التأويل على أن هذه الآية الكريمة في آدم وحواء .

أما الآثار التي تؤيد هذا الذي ذكره الطبري فتستطيع أن تقسمها إلى ثلاثة أنواع: آثار مرفوعة وموقوفة ومقطوعة.

فمن المرفوع الذي يؤيد هذا الذي ذكره ابن عباس ما روي عن سمرة بن جندب من رواية الحسن البصري عنه قتادة يرويه عن الحسن البصري عن سمرة نحو هذا الذي ذكره ابن عباس ؛ هذا رواه ابن جرير الطبري وقبله الإمام أحمد ورواه الترمذي في سننه وقال حسن غريب، ورواه الطبراني كذلك في المعجم الكبير والحاكم في المستدرك وصححه ووافقه الذهبي ورواه الروياني في مسنده ورواه ابن بشران في أماليه ورواه كذلك أبو يعلى وأبو الشيخ ؛ لكن هذا الطريق المؤدي للحسن عن سمرة فيه عدة علل: العلة الأولى: فيه عمر بن إبراهيم العبدي . هذا ضعفوه في روايته عن قتادة ؛ قال فيه أحمد بن حنبل: ثقة لا أعلم عنه إلا خيرا.. وضعفه الدارقطني وقال ابن عدي: حديثه خاصة عن قتادة مضطرب ؛ وقتادة مدلس ؛ رواه كذلك النسائي ؛ وسماع الحسن من سمرة فيه كلام لأنهم قالوا الحسن لم يسمع من سمرة إلا حديث العقيقة .

هذا الطريق ذكر له ابن كثير رواية عند ابن مردويه في التفسير، وتفسير ابن مردويه غير موجود الآن وغير مطبوع لكن ابن كثير أتى بهذه الرواية وأنها من طريق المعتمر بن سليمان عن أبيه سليمان التيمي الإمام الكبير أحد السادة الكبار والمعتمر ابنه كان رأسا في العلم والعبادة ؛ هذا الإسناد الذي ذكره ابن كثير من تفسير ابن مردويه إسناد صحيح إلى الحسن يعني لا يبقى فيه علة إلا العنعنة التي بين الحسن وسمرة بن جندب ؛ هذا بالنسبة للمرفوع. لذلك ابن كثير بعد ذكر هذه الرواية الصحيحة يعني

إلى الحسن قال بعد روايته: فالله أعلم . لأنه لم يستطع أن يضعف هذا الطريق ؛ بقي أن نقول إن هذه الرواية المرفوعة لها شواهد من الموقوف على أبي بن كعب ؛ حيث رواه ابن أبي حاتم في تفسيره وعبد بن حميد وكذلك أبو الشيخ كما ذكر هذا الشوكاني في فتح القدير ؛ وهو أيضا مذكور في تفسير ابن أبي حاتم.. وهذا الإسناد قال فيه صاحب التيسير: هذا الإسناد صحيح. لكن على كل حال الموجود عند ابن أبي حاتم في إسناده سعيد بن بشير وثقه شعبة وغيره ؛ وقال البخاري تكلموا في حديثه ؛ وفيه كذلك راو اسمه عقبة بن عبد الله الأصم وثقه أحمد وضعفه غيره، فلعل صاحب التيسير يقصد الإسناد الآخر.. كذلك مما يؤيد المعنى الذي ذكره سمرة ما روي عن سمرة نفسه موقوفا عليه رواه ابن جرير بسند صحيح بإسناده عن محمد بن عبد الأعلى عن معتمر بن سليمان عن أبيه عن يزيد بن عبد الله بن الشخير عن سمرة : إن آدم عليه السلام سمى ابنه عبد الحارث . وهذا الإسناد صحيح لا مطعن فيه البتة ؛ ولا يصح أن نعلل الحديث الأول بهذا الإسناد أو بهذا الحديث الموقوف لاختلاف الطريق واختلاف المتن ؛ لأن هذا المتن يختلف عن المتن الأول الطويل.. أما هذا المتن فيختلف عن ذاك.. أن آدم عليه السلام سمى ابنه عبد الحارث وهذا إسناد رجاله ثقات من رجال الصحيحين إلا محمد بن عبد الأعلى فمن رجال مسلم فقط .

أثر ابن عباس الذي ذكره المؤلف هنا مروي عنه من خمس طرق ، رواه عنه سعيد بن جبير ، كما عند ابن أبي حاتم في التفسير ، وفي طريقه رجل اسمه خصيف بن عبد الرحمن الجزري ، صدوق سيء الحفظ وضعفه أحمد ؛ الطريق الثاني: عن عكرمة عن

ابن عباس، ورواه عن عكرمة داود بن حصين وهو وثقه العجلي وابن سعد وأحمد بن صالح المصري وقال أبو حاتم: ليس بالقوي ؛ وقال النسائي: ليس فيه بأس .

أيضا ممن روى عن ابن عباس هذا الأثر ابن جريج عند ابن أبي حاتم عند ابن جرير الطبري في المجلد السادس بلفظ «**فلا أزال أقتلهم**» يعني إبليس يقول فلا أزال أقتلهم حتى تسميه عبد الحارث ؛ هذا من رواية الحجاج بن محمد المصيصي الأعور وهو ثقة اختلط بآخره أو بأخرة عن ابن جريج .

أيضا ذكر ابن كثير رواية عن ابن عباس من طريق العوفي ولم يذكر سندها وكذلك روى ابن جرير هذا الأثر عن ابن عباس من طريق محمد بن سعد عن أبيه عن عمه عن أبيه كذلك عن أبيه عن ابن عباس هذا أيضا فيه ابن جريج .

الطبقة التي بعد ذلك طبقة تلاميذ ابن عباس ؛ يعني فسر هذه الآية بهذا التفسير الذي ذكره ابن عباس عدد من تلاميذ ابن عباس كمجاهد بن جبر الإمام الكبير وسعيد بن جبير وعكرمة وكذلك فسرها بهذا التفسير الإمام السدي الكبير؛ كل هذه الأسانيد في الحقيقة تعضد ما روي مرفوعا من رواية الحسن عن سمرة.. ما روي موقوفا من خمس طرق عن ابن عباس وما روي موقوفا من طريق عبد الله بن كعب وما روي موقوفا عن سمرة بن جندب بإسناد صحيح لا مرية فيه كل هذا يعضد القول بأن هذه الآية الكريمة في الأبوين الكريمين.. لذلك قال ابن جرير الطبري في تفسيره : وأولى القولين بالصواب قول من قال: عني بقوله ﴿**فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء**﴾ في الإسم لا في العبادة ؛ وأن المعني بذلك آدم وحواء لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك .

لذلك قال الشيخ سليمان بن عبد الله صاحب الشرح الكبير تيسير العزيز الحميد : وإذا تأملت سياق الكلام من أوله إلى آخره مع ما فسره به السلف تبين قطعا أن ذلك في آدم وحواء عليهما السلام فإنه في غير موضع يدل على ذلك... والعجب ممن يكذب بهذه القصة وينسى ما جرى أول مرة ـ يعني أول مرة في أكل الأبوين من الشجرة ـ وينسى ما جرى أول مرة ويكابر بالتفاسير المبتدعة ويترك تفاسير السلف وأقوالهم.. وليس المحذور في هذه القصة بأعظم من المحذور في المرة الأولى.. ليس المحذور في هذه القصة بهذه التسمية التي خالفا فيها الأمر بأعظم من المحذور في المرة الأولى التي خالفا فيها الأمر المباشر.. لذلك يقول الشيخ نفسه : أن نسبة ذلك لغير آدم وحواء من التفاسير المبتدعة .

والشيخ ابن باز رحمه الله تعالى يقول أيضا: هذا السياق في ذكر آدم وحواء ؛ حيث أطاعا الشيطان في تسمية عبد الحارث ؛ وقال آخرون: إن المراد بالآية جنس من بني إسرائيل وإن هذا وقع من بني إسرائيل، لكن ظاهر السياق يأبى هذا ؛ يعني كل سياق الآية فيها الضمائر، ضمائر التثنية ؛ قال تعالى ﴿**فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين. فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما**﴾ كلها في ضمير التثنية الذي يعود على الأبوين الكريمين.. يقول الشيخ ابن باز رحمه الله تعالى : بل هو كما قال ابن عباس وغيره من السلف أن المعصية وقعت منهما.. والمعصية قد تقع من الأنبياء إذا كانت صغيرة كما قال العلماء.. ثم قال: ويحتمل أنهما حين فعلا ذلك كانا يعتقدان أن ذلك جائز فلهذا فعلا ولم يعلما أنه منكر وإنما كرهاه أولا ثم خضعا لوسوسته وما أراد.. وبين الله فيما أنزله على رسوله ﷺ أنه لا يجوز..

وهذا الحكم يناط بشريعة محمد ﷺ.. يعني يقول بأن هذا الحكم في شريعتنا واضح فربما لم يكن قد جاء لآدم في شريعته أمر بهذا الخصوص يقول: أما في شريعتنا فالحكم فيه واضح.. وبين الله فيما أنزله على رسوله ﷺ أنه لا يجوز ... وهذا الحكم يناط بشريعة محمد ﷺ فهي الشريعة العامة وما كان قبلنا ففيه إباحة لبعض المسائل ومنع لبعضها .

الشوكاني رحمه الله تعالى يقول: قال كثير من المفسرين إن إبليس جاء إلى حواء وقال لها إن ولدت ولدا فسميه باسمي ؛ فقالت : وما اسمك ؟ قال : الحارث ؛ ولو سمى لها نفسه لعرفته.. يقول يعني كأنها لم تعرف أن هذا إبليس وإنما ظنته عبدا صالحا يدعو لها.. يقول: فسمته عبد الحارث.. فكان هذا شركا في التسمية ولم يكن شركا في العبادة وإنما قصدا أن الحارث كان سببا لنجاة الولد كما يسمي الرجل نفسه عبد ضيفه ؛ يقول: إنما قصدا أن الحارث كان سببا لنجاة الولد كما يسمي الرجل نفسه عبد ضيفه.. كما قال حاتم الطائي العربي المشهور بالكرم:

وإني لعبد الضيف ما دام ثاويا وما في إلا تلك من شيمة العبد

يعني يقول طالما الضيف عندي ، من شدة كرم حاتم الطائي فيقول أنا عبد له مادام ثاويا، يعني ما دام عندي مقيما فأنا عبد له .

يعني يشبه هذا كلام بعض الناس: من علمني حرفا صرت له عبدا.. يعني في طاعته.. البغوي بعدما ذكر هذا الكلام عن حاتم الطائي قال: كما يذكر اسم الرب على ما لا يراد به أنه معبود هذا.. فالرجل إذا نزل به ضيف يسمي نفسه عبد الضيف على وجه الخضوع لا على وجه أن الضيف ربه ويقول للضيف أنا عبدك ؛ وقال

يوسف عن عزيز مصر إنه ربي ولم يرد به أنه معبوده كذلك هذا.. أي أن الحارث كان سببا في نجاة الولد وسلامة أمه.. قال البغوي: ولم يكن هذا إشراكا في العبادة ولا أن الحارث ربهما فإن آدم كان نبيا معصوما من الشرك.. هكذا انتهى من تفسير البغوي..

قال عكرمة: ما أشرك آدم ولا حواء، وكانا لا يعيش لهما ولد.. فأتاهما الشيطان فقال: إن سركما أن يعيش لكما ولد فسمياه عبد الحارث وهو قوله ﴿**جعلا له شركاء**﴾.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة : والغنى عن الحاجة من خصائص الربوبية.. يعني الإنسان المخلوق الضعيف لا يستغني عن ربه جل وعلا والمعصية تجعله يزداد قربا وإنابة وخضوعا واستسلاما وضعفا واستكانة.. يقول الشيخ: والغنى عن الحاجة من خصائص الربوبية، فأما العبد فكماله في حاجته إلى ربه ؛ كمال العبد في حاجته إلى ربه وعبوديته.. كمال العبد أنه دائما يكون مفتقرا إلى الله جل وعلا دائم الخضوع والاستكانة والاستسلام بين يديه ودائم الإلحاح والطلب من ربه جل وعلا.. فأما العبد فكماله في حاجته إلى ربه وعبوديته وفقره وفاقته فكلما كانت عبوديته أكمل كان أفضل.. وشيخ الإسلام ابن تيمية كان يقول: ليس مني شيء ولست بشيء.. وكان يقول:

أنا الفقير إلى رب البريات أنا المسيكن في مجموع حالاتي

وكان يقول:

والفقر وصف لازم لي أبدا كما الغنى وصف له ذاتي

يعني كما أن الغنى وصف لله جل وعلا لا ينفك عنه أبدا فالفقر والحاجة وصف للعبد ولا بد للعبد أن يستحضر هذا الوصف دائما ، أنه عبد وأنه فقير وأنه محتاج..

يقول شيخ الإسلام: فكلما كانت عبوديته أكمل كان أفضل وصدور ما يحوجه إلى التوبة والاستغفار مما يزيده عبودية وفقرا وتواضعا.. يعني أن الإنسان الذي يصدر منه ما يجعله يلجأ إلى ربه ويتوب ويستغفر ويجعله خاضعا لربه ويزداد خضوعا وتواضعا.. يقول: وصدور ما يحوجه إلى التوبة والاستغفار مما يزيده عبودية ؛ ومن المعلوم أن ذنوبهم ليست كذنوب غيرهم.. بل كما يقال حسنات الأبرار سيئات المقربين ؛ ولكن كل يخاطب على قدر مرتبته وقد قال صلى الله عليه وسلم «**كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون**» أ هـ . على تحسين هذا الحديث لأن بعض أهل العلم يحسنه وبعضهم يضعفه .

يقصد الشيخ هنا أن آدم عليه السلام كما حصل في المرة الأولى كانت حالته بعد المعصية وبعد التوبة أكمل من حاله قبل ذلك ؛ كما قال تعالى ﴿**وعصى آدم ربه فغوى. ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى**﴾..

قوله : « **فيه مسائل:**

الأولى: تحريم كل اسم معبد لغير الله.

كما سبق .

الثانية: تفسير الآية.

الثالثة: أن هذا الشرك في مجرد تسمية لم تقصد حقيقتها » لم تقصد حقيقتها: يعني لم يقصد ما أراده الشيطان من التعبيد له .

الرابعة: أن هبة الله للرجل البنت السوية من النعم » لماذا نص على البنت؟ لأن العرب كما قلنا كانوا إذا جاءهم البنت يكرهون ذلك ويتشاءمون من ذلك، ويظل أحدهم

مسود الوجه لا يستطيع أن يقابل الناس إذا ولدت له بنت، فالمؤلف هنا يرد عليه لأنه كما قلنا من قبل أنه جاء في أحد التفاسير عن الحسن وقتادة أن المراد بـ﴿**صالحا**﴾ غلاما « **أن هبة الله للرجل البنت السوية من النعم** »..

الخامسة: ذكر السلف الفرق بين الشرك في الطاعة والشرك في العبادة » وأن هذا كان في مجرد التسمية..

نستفيد من هذا الباب أن الابتلاء يكون بالخير والشر والابتلاء بالنعمة، بعض الناس يصبر على الابتلاء بالفقر والابتلاء بالمصائب لكنه لا يصبر على الابتلاء بالنعم والابتلاء أيضا بالأموال والابتلاء بالأولاد ابتلاء عظيم، فكثير من الناس من أجل أولاده يرتكب المحظور ومن أجل أولاده يرتكب ما حرم الله جل وعلا عليه.. بل قد يقضي حياته كلها من أجل الأولاد قال تعالى : ﴿**إنما أموالكم وأولادكم فتنة**﴾ فالإنسان يجب عليه أن يشكر الله جل وعلا على النعمة بأنواع الشكر ، والشكر له ثلاثة أركان: الاعتراف بالنعمة بالباطن يعني بالقلب، والثناء على المنعم باللسان وأن تجعل هذه النعمة في مرضاة الله سبحانه وتعالى وتعمل بها صالحا .

والله أعلم